المستشرقون, "والمستغربون", و"جزئية" المعرفة!

د. وليد أحمد السيد
دكتوراة في فلسفة العمارة من جامعة لندن

جريدة الوطن العمانية
الثلاثاء 23 شباط 2010

"إنك لا تستطيع أن تناقش موضوع المحيطات مع ضفدع تعيش في بئر, فهي محصورة بعالمها المحدود! ولا تستطيع التكلم عن الثلج لحشرة صيفية, فهي محكومة بفصلها الوحيد! ولا تستطيع أن تتكلم عن "طريق المعرفة "لباحث متحيز, ففكره مقيد بجزئية الإختصاص والمعرفة!" – من نصوص الطريقة التاويّة.

تطرح فكرة "الإختصاص المعرفي" تساؤلات محورية في المدى الذي يمكن لباحث أن يسبر أعماق الحقيقة وأن يخرج بنتائج موضوعية ودقيقة في بحث ما, كما تطرح إشكاليات عندما تتعلق بالأخذ والتلقي من علوم أخرى. وبدهيا لا يجادل إثنان على المنحى "الإختصاصي" الذي سلكه العالم المعاصر بما يقتضيه التبحر في علم معين من سنوات وربما "حياة" أكثرمن باحث لسبر أعماق حقيقة ما وتثبيت أو دحض نظرية ما, ولكن بالمقابل تطرح تساؤلات مشروعة في مدى وأهمية وإمكانية "تضافر" علوم متشابكة في البرهان على مدى صدقية بحث معين وإعطائه عمقا دقيقا في البرهان والقرب من الحقيقة.

"جزئية المعرفة" هي إشكالية متجذرة في البحث العلمي والأكاديمي وتخيم بظلالها على مختلف الأصول والفروع للمباحث العلمية والأكاديمية والأدبية والفنية. وهي ظاهرة يمكن وصفها بالحديثة نظرا لتشعب العلوم وتطورها وتفرعها لتخصصات دقيقة بشكل متسارع وغير مسبوق. وهي إشكالية لازمت الباحثين والمستكشفين والمخترعين والعباقرة منذ الأمس القريب. وثمة تساؤل يبرز في هذا الإطار وهو: هل توجد وسيلة علمية أو منطقية للتغلب على "جزئية المعرفة "أم أنها إحدى آفات العلم الحديث التي لا بد منها؟ الإجابة هي نعم ولا في نفس الوقت. فالتخصص الدقيق في فروع العلوم والمعارف يلغي إمكانية تجاوزها بغير تعلمها وإتقانها والتبحر فيها, وفي نفس الوقت فهناك ضرب من "أصول "الفكر والعلم الذي يعتمد العقل الذي هو مناط البحث والتحليل والتفكير وهو

")الفلسفة" المقرونة بالثقافة الواسعة). فالمثقف تعريفا ليس هو من يعرف كل شيء لكنه "الشخص الذي يعرف شيئا من كل شيء"! كما أن هناك وسيلة أخرى للتغلب على جزئية المعرفة في العلم الواحد بإدراك "أصول العلم" بما يمكّن الباحث من "الإستنباط" والقياس والتحليل المنطقي. فالمعماري المهتم والمتخصص تخصصا دقيقا في التصميم الحضري مثلا, لا يمنعه ذلك من الإلمام بتاريخ العمارة ونظرياتها أو تاريخ الفن عموما إلماما يقترب من دوائر التخصص والتبحر لانتماء الفروع لذات الأصل, وهذا كله مقرون بتملك ذهنية برهانية تحليلية تعتمد العقل والمنطق في القراءة والتحليل. وذات الأمر ينطبق على متخصص في علوم الطب والتشريح وعلوم الأدوية – فلا يمنع الطبيب "العام" مانع من الإلمام بفروع من الطب تقع خارج دائرة تخصصه العامّ أو الدقيق وهكذا . فالإنتقال من دوائر الفروع ضمن ذات العلم أو التخصص العام ممكنة ومتاحة وأقرب للتحقيق منها من الإنتقال من دوائر خاصة جدا من علم لآخر. وبالرغم من كلامنا هذا إلا أن المتأمل يلاحظ أن العقل الإنساني غير محدود بقدراته وإدراكاته وما يمكن للإنسان أن يتقنه في حياة واحدة. فالمرء يمكنه إتقان أكثر من لغة, ويتبحر في علوم ونحويات وبلاغة لغته الواحدة الخاصة, ويتقن في ذات الوقت أصول الحساب والجبر والرياضة العقلية, وبالتدريب والمران والممارسة يمكنه إتقان علوم مختلفة – وأمثلة وشواهد الماضي العربي والمسلم تثبت ما ذهبنا إليه, لنجد علماء مسلمين مثل ابن سينا والرازي وغيرهم وقد برعوا في أكثر من علم. ومن قبلهم برع أرسطو وأفلاطون في علوم متعددة متباينة. لكن الملاحظ لسيرة هؤلاء العلماء جميعا أن "الفلسفة" كذهنية منطقية ومنهجية عقلية تحليلية كانت رابطا وقاسما مشتركا بينهم – وبين علومهم المختلفة التي أتقنوها .

والفلسفة ككلمة يونانية المنشأ والأصل – تعني "حب الحكمة والمعرفة" – هي مناط النشاط العقلي والذهني الذي يفتح القنوات للعقل كي يمارس دوره الذي وهبه الله تعالى له. وهي منهجية مارسها العقلاء في التاريخ البشري للتعامل مع الظواهر المحيطة وتفسيرها بالعقل ورد الأسباب إلى مسبباتها. فهي مفتاح كل العلوم والدواء "العقلي" للتعامل مع آفات التناقضات المحسوسة والمشاهدة وسبر أغوار بواطن الظواهر. والتساؤل هنا: هل يمكن للفلسفة وحدها أن تصل لكل الحقائق وأن تفسر كل المشاهدات والمحسوسات اعتمادا على التحليل العقلي والبرهان المنطقي وحده؟ نحن نزعم أن الفلسفة "العقلية" بدرجاتها العليا يمكن بما زرعه الله تعالى في "طبيعة العقل" أن تتوصل لتفسيرات سليمة ومنطقية – هذا من ناحية نظرية فقط, لكن درجات نجاحها تتفاوت بتفاوت القدرة العقلية وبما يمكن للعقل المحدود وبنسبة الخطأ البشري أن يضل به. ومن هنا فهذا التعميم أيضا هو محدود "بجزئية" هي جزئية "الإدراك" والقدرة الذهنية التي تقوى وتضعف بالممارسة والمران وتتحدد بتوافر عوامل معينة سنعرض لبعضها تاليا .

ولكن وأمام هذه القدرات الذهنية "المتاحة" للعقل البشري الذي يمكنه التوصل إلى بواطن الأمور إن سلك "منهجية الفلسفة" يظل محدودا أمام قدرة صاحبها على إتقان علوم أساسية لا بد منها لإتمام عمليات الإستنباط والقياس والتحليل .ومن هذه العلوم الأساسية مثلا هي علوم اللغة, والتي تكاد تدخل في كافة الأصول والفروع للعلوم البشرية برمتها. فبدون إتقان اللغة إتقانا لدرجات تصل لمراتب عليا في بعض العلوم – كعلوم الشريعة مثلا – لن يتحرك المفكر من مكانه خطوة "عقلية" واحدة مطلقا. وفضلا عن إتقان علوم أساسية فتوفر صفات وظروف معينة هي من أبجديات سلوك منهج "التفكير العقلي المنطقي". فلقمان الحكيم عليه السلام قال لابنه موصيا:" يا بني إذا شبعت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة", وقال حكيم:"جسوم أهل العلم غير سمان"! فالعلاقة الجدلية بين العقل والمعدة وتوافر الشروط والظروف المناسبة للعقل كي يعمل عمله الطبيعي هي محورية وأساسية.

وفي مقابل هذه المجموعات من الأفكار والتقديم في دور الفلسفة مقابل تخصصات العلوم وتفرعاتها, يبرز تساؤلنا الرئيس في هذه المساحة حول المستشرقين وإنتاجاتهم المعرفية لحضارات غير حضارتهم, ودور باحثينا العرب المسلمين "المستغربين" في إنتاج معارفهم في معاهد الغرب وعلى أيدي أساتذتهم "المستشرقين" وجزئية المعرفة "المزدوجة سلبا" في حالة الإثنين – المستشرقين تارة, و"المستغربين" المتتلمذين على يدي "مستشرقين" في الغرب تارة أخرى.

معضلة إتقان اللغة ألجمت الباحثين على مدى الأزمان "البحثية" لكنها – وللمفارقة – لم يعبأ بها المستشرقون وضربوا بها عرض الحائط لدى إنتاج موسوعاتهم البحثية عن الشرق الذي عاثوا في علومه وتاريخه. والمتأمل في سيرة المستشرقين يجد أن مشكلة الإستشراق تزداد حدة وعنصرية وتجنيا على التاريخ العربي والمسلم كلما اقتربنا من دائرة "الإستشراق والإسلام", حيث تقل الموضوعية والإنصاف, وهذا مرده جزئيا التعصب في حالة والجهل بعلوم الدين المرتبطة ارتباطا مباشرا ووثيقا باللغة العربية لغة القرآن الكريم.

واللغة كانت أيضا عائقا في حالة "المستغربين" العرب والمسلمين الباحثين في ديار الغرب. واللغة هنا نعني بها "لغتين" – لغة الشرق ولغة الغرب! فالباحث العربي والمسلم كان عليه كتابة أطروحته البحثية بلغة أجنبية عليه أن يتقنها لدرجة عالية من التخاطب والكتابة الأكاديمية, فضلا عن ضرورة "ترجمة" نصوص شرقية ترجمة دقيقة وسليمة وخالية من الخطأ "الحضاري" أو الثقافي. وفي نفس الوقت – وبخاصة في حالة الأطروحات التي تعالج موضوعات شرقية – كانت تتم مراجعة كتابات وموسوعات بلغات "شرقية" لا يتقن منها مشرفه "الأكاديمي "المستشرق في المعهد الغربي كلمة

واحدة! وتزيد حدة المشكلة في حال اعتماد البحث الأكاديمي على تخصصات خارج التخصص المعرفي للباحث "المستغرب" وخاصة إن كانت تقع ضمن دوائر دينية وثيولوجية متعلقة بالدين الإسلامي والعقيدة والشريعة والقرآن. فلنا أن نتخيل باحثا عربيا مسلما يدرس في معهد غربي ينتج أطروحة في العمارة مثلا ويبحث في أصول علوم الشريعة والفقه تحت إشراف أستاذ غربي "مستشرق" لا يتقن اللغة العربية فضلا عن معرفته بسطحيات الشريعة والعقيدة الإسلامية! ولنا أيضا أن نتخيل صورة "سوريالية" مدهشة حين يكون مدى التزام الطالب العربي الباحث بالعقيدة والشريعة هو "التزام سطحي" لا يتجاوز الشعائر التعبدية وقد لا يفهم الكثير من المعاني لمدلولات اللفظ القرآني الدقيقة, فضلا عن أصول ومقاصد الشريعة واستنباطات أحكامها وقواعد الإجتهاد وسواه!

والمدهش أيضا أن ترى بعض هؤلاء الباحثين الذين سعوا جاهدين لإنتاج أطروحات أكاديمية في معاهد غربية (!) – وليس في جامعات الأزهر أو الزيتونة مثلا - تبحث في علوم العمران استنادا لمقاصد الشريعة واعتمادا على تأويلات نصوص وأحكام تشريعية يغرقون في مناكفات جوفاء سطحية تهاجم "المستشرقين" وتجنيهم على عدم فهمهم لما يسمى "بالمدينة الإسلامية", وأنهم – المستشرقين - انطلقوا في كتاباتهم من نظرة عنصرية حاقدة! ولماذا إذن سعى هؤلاء "المستغربين" الأشاوس لإنتاج أطروحاتهم لاهثين وراء أسماء جامعات أكاديمية براقة تخرجوا منها, وعلى أيدي أساتذة "مستشرقين"؟ أليس هذه تناقضا صارخا في الفكر والمنهج والمضمون من قبل هؤلاء "المستغربين"؟ وما هو مدى شرعية هذه "الأطروحات" الأكاديمية التي أنتجها هؤلاء "المستغربين" تحت أيدي أساتذتهم "المستشرقين" في المعاهد الغربية, وبخاصة تلك التي بحثت في موضوعات متعلقة تعلقا وثيقا بالعقيدة والشريعة والدين الإسلامي – والمرتبطة باللغة العربية والثقافة الإسلامية, وخاصة تلك التي تبحث في تخصصات "أقحمت" الدين والشريعة الإسلامية إقحاما في تخطيط ما يسمى "بالمدينة الإسلامية"؟ وكيف يمكن لمشرف أكاديمي غربي "مستشرق" أن يجيز أطروحة تعتمد على نصوص وتأويلات مقاصد شرعية لباحث شرقي, وما هو موقع هذا المشرف الأكاديمي من الإعراب ,فهما وتدبرا ودراية بالدين والفقه والشريعة, كائنا من كان ومهما كان مدى اهتمامه بالثقافة والحضارة العربية؟

هذا المنهج الذي ساد طوال ثلاثة عقود بالتآلف بين لهاث باحثين شرقيين وبين "سيادة" المعاهد الغربية قاد لمجموعة من الأمور فيما يخص البحث العلمي العربي المعاصر: أولا – تخرج مجموعة من الباحثين العرب من معاهد غربية ليصبح بعضهم "مناهضي الإستشراق والمستشرقين" جملة ومضمونا وبخاصة بعد تجاربهم ومعاينتهم "لجزئية معرفة" هؤلاء الأساتذة الغربيين ومدى ضحالة معرفتهم بالشرق وعلومه. ومن هؤلاء من صدح بالحق ومنهم من أطبق فمه وأمسك قلمه, ليقطف

ثمار التخرج من معهد أكاديمي لامع الإسم. ثانيا – تمت إنتاج مجموعات من الأبحاث "المضللة" التي لا تقل خطرا عما أنتجه المستشرقون "الكلاسيكيون" لكن ظروف إنتاج الأخيرة تمت في عملية "استشراق مقلوب" أو ضمن عملية لهاث باحثين عرب ومسلمين "مستغربين" راكضين طوعا لمعاهد الغرب .ثالثا – تمت عملية "تضليل" معرفي لأجيال في المعاهد الأكاديمية العربية على مدى عقود كنتيجة لبعض هذه الأبحاث الأكاديمية التي عالجت موضوعات مرتبطة ارتباطا مباشرا بالثقافة والحضارة العربية المسلمة, وهي نتيجة مباشرة لإقحام علوم ترتبط باللغة العربية والدين الإسلامي في بعض البحوث التي أنتجها عرب ومسلمون في معاهد الغرب, ونتيجة لجهل و"جزئية معرفية" مزدوجة من قبل الباحث والأستاذ سواء بسواء. رابعا – غلبة الإسم الأكاديمي البرّاق للمعهد الغربي حالت ولسنوات طويلة أمام محاولات النقد والتحليل والتمحيص لأطروحات هؤلاء الباحثين العرب بعد عودتهم, وبخاصة لتبوئهم مراكز أكاديمية بجامعات عربية – حيث لم تتهيأ الظروف الموضوعية لنقد ودراسة أعمالهم من باحثين زملاء أو تلامذتهم الذين تلقوا علومهم منهم بالتلقين.

في مقابل هذا كله يصبح لزاما مراجعة أبحاث الطلبة والباحثين العرب التي تم إنتاجها في المعاهد الغربية مراجعة نقدية شاملة – وبخاصة الأبحاث المرتبطة ارتباطا مباشرا بأصول الثقافة والحضارة العربية المسلمة. وهذه المراجعة لا تختلف مطلقا عن ضرورة مراجعة الموسوعات الإستشراقية التي أنتجها المستشرقون "الكلاسيكيون" – مستشرقو إدوارد سعيد – فكلا المنتجين هما وجهان لعملة واحدة, الأول أنتجه المستشرقون في بلاد الشرق وعلى حساب الشرق لاحقا ,والثاني أنتجه "المستغربون" في بلاد الغرب وبمال وإنفاق عربي مسلم أيضا ولمصالح ومآرب شخصية وبراغماتية خاصة!

وليد أحمد السيد

لندن في 09 شباط 2010